الإعجاز القرآني

وأثره على مقاصد التنزيل الحكيم

د. رجاء بنت محمد عودة

BP
٨٦
ف٩ع /

مكتبة العبيكان

الإعجاز القرآني

وأثره على مقاصد التنزيل الحكيم

الدكتورة

رجاء بنت محمد عودة

أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب جامعة الملك سعود

١٤٢٤هـ

kitabweb-2013.forumaroc.net

ⓗ مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عودة، رجاء بنت محمد

الإعجاز القرآني وأثره على مقاصد التنزيل الحكيم/ رجاء محمد عودة

ـ الرياض، ١٤٢٤هـ

٩٦ص، ١٤×٢١سم

ردمك: ٤ -٢٩٠ -٤٠ -٩٩٦٠

١ - القرآن ـ الإعجاز القرآني، ٢ ـ القرآن ـ إعجاز - أ. العنوان

ديوي ٢٢٥ ١٤٢٤/٣١٤٢

ردمك: ٤ -٢٩٠ -٤٠ -٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٤٢٤/٣١٤٢

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

ـ حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرمز: ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

kitabweb-2013.forumaroc.net

بسم الله الرحمن الرحيم

kitabweb-2013.forumaroc.net

أمــــي ،،يرحمك الله،،

لقد غرست حبَّ القرآن في نفسي قبل أن أدرك معناه ...

فإليك أهدي أولى ثمرات هذا الغراس

رجـــاء

kitabweb-2013.forumaroc.net

kitabweb-2013.forumaroc.net

ملخص البحث

تتناول هذا الدراسة خصوصية النظم القرآني، وأثره على بيان وتعميق مقاصد التنزيل الحكيم، حيث ترتقي المدارك إلى آفاق البيان المعجز، بفقه أدوات الصياغة: اللغوية، والصرفية، والبلاغية.

فتتجلى آماد لا حدود لها من جلال الإعجاز، وعمق المعاني، وبعد الإيحاءات، وسمو الغايات.

وقد نوهت الدراسة بأن هذا الفهم العميق لكتاب الله يقتضي فهم الوظيفة الدلالية لكل جزئية تعبيرية في الكتاب الكريم، حتى على صعيد الاستخدام الحرفي، الذي ينهض بوظيفة معرفية مميزة لا يؤديها أي حرف آخر قد يقوم مقامه، حيث يختلف المعنى باختلاف الاستخدام. وهذا ما يدعم الارتباط الوثيق بين المقام والمقال، أو بين النظم ومقاصد التشريع؛ مما يجعلهما نسيجاً تعبيرياً واحداً؛ يتجلى على صعيد: عموم السياق، وعلى مستوى الآية الواحدة، وعلى نطاق المفردة القرآنية، ومن خلال الاستخدام الحرفي. وقد عرضت الدراسة لهذه الجوانب الأربعة، معتمدة على الشواهد القرآنية

kitabweb-2013.forumaroc.net

والمعايير اللغوية، مؤكدة الارتباط بين إعجاز النظم، وإعجاز التشريع - إن جاز هذا التعبير.

وارتكزت هذا الدراسة أساساً لبيان مقاصد التشريع من خلال إعجاز النظم، مفصحة عن مفاهيم عقدية، وضوابط اجتماعية، وقيم سلوكية، ومعايير لغوية، متآلفة كلها في وحدة واحدة من التعبير، واضعة المنهج الأمثل للحياة الإنسانية، لتنتظم حركة الحياة بمنهج السماء.

kitabweb-2013.forumaroc.net

// Abstract

Abstract. This study addresses thc specificity of the Quranic structure and its congruity with elucidating and deepening the aims of the Holy Book. The congruity materializes at the level of the specificity of linguistic.

Morphological. and rhetorical dimensions. Concentrating on the functional signification. the study traces this specificity at all levels of expression. even at the level of a single letter. Such congruity enhances the relation between thc expression and the occasion in which it takes place; it enhances further the correlation between structure and the aims of legislation by means of which both become one single texture. Thus. congruity be-comcs apparent on the levels of the general context. a single verse, a single word, and even a single letter. The study, therefore. aims at drawing the objectives of legislation through Quranic structure, revealing thereby concepts of faith, social regulations. ethical values, and linguistic criteria: all coherently rendered in an autonomous unity of expression. Such is the ideally harmonious way of human life according to the laws of Allah.

kitabweb-2013.forumaroc.net

kitabweb-2013.forumaroc.net

تمهيد

القرآن الكريم كتاب العربية الأكبر، ومعجزتها البيانية الخالدة، جعله الله آخر رسالاته لهداية البشرية، وتحقيق مصالحها الدينية والدنيوية.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة الآية: ٤٨)

فالقرآن هو الدستور الدائم لإصلاح الخلق، وقانون السماء لهداية الأرض، وحجة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ومعجزته الكبرى، وملاذ الدين الأعلى، يُستند إليه في العقائد، والعبادات، والمعاملات.

ومن هنا تضافرت جهود العلماء في العناية به، والاستفادة منه، واتخذت هذه العناية أشكالاً مختلفة، تجلت في جمعه وتدوينه، وترتيله، وإعرابه، وتنوع أدائه، ووصف قراءاته وقرائه، وبيان محكمه ومتشابهه، وبيان ناسخه ومنسوخه، وفواتيح سوره وخواتيمها، وأسباب نزوله، إلى آخر ما هنالك من موضوعات تنضوي في ثنايا هذه الموسوعة القرآنية.

kitabweb-2013.forumaroc.net

بيد أن أعلى هذه المباحث قدراً، وأعظمها شأناً بيان خصائصه التي كانت وحياً معجزاً، أتاحت لأرباب البيان استنباط علم البلاغة مأخوذين بسحر بيانه، وروعة إعجازه لما احتواه من ذروة الأداء الفني الذي لم يعهدوا نظيره في الشعر العربي. يقول محمود شاكر عن مكانة الشعر عند العرب: «هذا الشعر الذي كان حين أنزل الله القرآن على نبيه محمد ﷺ نوراً يضيء ظلمات الجاهلية، ويعكف أهله لبيانه عكوف الوثني للصنم، ويسجدون لآياته سجدة خاشعة لم يسجدوا مثلها لأوثانهم قط، فقد كانوا عَبَدة البيان قبل أن يكونوا عبدة الأوثان! وقد سمعنا بمن استخف منهم بأوثانهم، ولم نسمع قط بأحد استخف ببيانهم»(١).

ولهذا ألف في إعجاز القرآن كتب مستقلة تجلت في المصنفات الكلامية والبلاغية والنقدية، التي كونت في مجملها منظومة معرفية مازالت إلى الآن موضع المهتمين بالكشف عن أسرار الإعجاز القرآني: اللغوي والعلمي.

---

(١) انظر: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط٤، (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٧م)، ص ٤٨.

kitabweb-2013.forumaroc.net

وهو إلى جانب ذلك «مائدة يتغذى منها العقل والروح، فتتخلق منها ملكات علوية، ووجدانات ربانية، بها يسمو الإنسان ويعلو، وبها يرتفع على هذا الضعف الإنساني الكامن فيه وينتصر على هذه النزعات المندسة في كيانه[1].

وإذا كان القرآن يمثل الأنموذج الذي عجزت أمة البيان عن معارضته فإن محصلة ذلك تبرز مكانة القرآن اللغوية، وأنه المعجزة الباقية ببقاء الرسالة المحمدية، لتبقى الرسالة محروسة بالمعجزة. وهذه الدراسة تمثل غرسة صغيرة في هذا الحقل المتسع الأرجاء، بغية فهم الجانب اللغوي، والصرفي، والبلاغي، وأثر ذلك على مقاصد التنزيل الحكيم، أو بعبارة أخرى التأمل العميق للنظم القرآني أو الإعجاز القرآني وما يتميز به من خصوصية تعبيرية تجلي آفاق البيان المعجز، فتتضح أبعاد المنهج القويم.

والنظم لغة: ضم الشيء إلى الشيء في نظام وتناسق، جاء في لسان العرب: النظم: التأليف، ونَظَمْتُ اللؤلؤ: أي جمعته في السلك، والتنظيم مثلهُ، ومنه نَظَمْتُ الشعر ونظّمتُه، وكل شيء قرنته بآخر أو ضممت

(١) عبد الكريم الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين (القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧١م)، ص٧.

kitabweb-2013.forumaroc.net

بعضه إلى بعض فقد نظمتُه، والنظم: المنظوم، والانتظام: الاتساق[1].
ونظم القرآن هو: عبارته التي تشتمل عليها المصاحف صيغة ولغة[2].

أما النظم اصطلاحاً فلعل أفضل تعريف له ما جاء عن صاحب نظرية النظم عبد القاهر الجرجاني: «اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه «علم النحو»، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها ... فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة، وذلك الفساد، وتلك المزية، وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه...»[3].

وعلى هذا فالنظم الذي نرمي إليه هو: إبراز تآلف الألفاظ مع المعاني تآلفاً ينهض بجلاء الفكرة، وجماليات التعبير، وفق معايير معاني النحو وأحكامه، من خلال ما يحفل به التعبير القرآني من خصائص: لغوية، صرفية، بلاغية، تجلي إيحاءاته، وظلال معانيه، وسمو غاياته.

---

(١) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، مكتبة النوري، دمشق، د.ت)، مادة: «نظم».
(٢) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، إشراف عبد السلام هارون (مطبعة مصر، ١٩٦١م)، مادة: «نظم».
(٣) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٤م) ص ص ٨١- ٨٣.

kitabweb-2013.forumaroc.net

ولدى تأمل النظم القرآني الذي سنتناوله في تضاعيف هذه الدراسة نجده قد تمثل في أربعة مباحث: تراءى الأول منها على صعيد السياق القرآني بعامة، والثاني على مستوى الآية الواحدة، والثالث من خلال المفردة القرآنية، والرابع على نطاق الاستخدام الحرفي.

وقد انضوى في ثنايا كل مبحث ثلاثة مسارات يتناول كل منها في ضوء المبحث الواحد ما يكشف عن خصوصية الإعجاز القرآني بأدوات الصياغة؛ اللغوية، والصرفية، والبلاغية، وأثر ذلك في تعميق مقاصد التنزيل المحكم.

kitabweb-2013.forumaroc.net

kitabweb-2013.forumaroc.net

١ـ الإعجاز في السياق القرآني

ليس بجديد القول أن إعجاز النظم القرآني وخصوصيته التعبيرية تجلت في القرآن بعامة؛ فالقرآن معجز كله بلفظه ومعناه، يحمل في ذاته دليل إعجازه، راسماً القانون الإنساني الأعلى من خلال فصاحة ألفاظه، وإصابة معانيه، وجمال إيقاعه، وبُعد إيحاءاته، مما جعل بلاغة القرآن: «بلاغة أسلوب تبهر العقول، وتسلب القلوب، وإعجاز نظم لا يقدر عليه إلا علام الغيوب»[١].

ولما كان هذا الأسلوب القرآني المعجز قد أعجز أرباب الفصاحة، وأساطين البلاغة عن محاكاة آية واحدة من آياته فإن هذا العجز البشري ـ في نظري ـ يستدعي فقه الإحاطة بكل جوانب إعجازه، مما يقتضي الوقوف عند بعض مواطن هذا الإعجاز، أو هذا النظم من خلال خصائصه: اللغوية، والصرفية، والبلاغية، تلك التي تآلفت في وحدة واحدة من التعبير.

---

(١) جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ط ٣ (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥١م)، ٣/١.

kitabweb-2013.forumaroc.net

وعلى الرغم من أن هذه الخصائص التعبيرية: اللغوية والصرفية والبلاغية هذه قد تداخلت فيما بينها سواء في اللون الواحد، أو بينها مجتمعة، فقد رجحنا في تصنيفها الجانب الذي يتفق مع طبيعة الدراسة وهدفها، ومن هذه الخصائص:

أ ـ خصائص لغوية:

تعددت وتنوعت وجوه الصياغة اللغوية على صعيد السياق القرآني مبرزة آفاق المعجزة اللغوية الكبرى. ومن هذه السمات: دقة معاني الألفاظ القرآنية، التي وضعت القول الفصل لظاهرة «الترادف اللغوي» التي مثلت قضية شائكة بين علماء العربية شغلتهم ردحاً من الزمن، واختلفت مذاهبهم فيها. بيد أن استقراء السياق القرآني لمواضع الترادف اللفظي يجعل لكل كلمة خصوصية دلالية لا يقوم مقامها كلمة سواها من الألفاظ المقول بترادفها.

ومن الألفاظ المقول بترادفها: لفظي: «الزوجة» و«المرأة» أو بتحديد أدق «الزوج» «المرأة» تقول عائشة عبد الرحمن: «وترى البيان القرآني يستعمل لفظ «زوج» حينما يتحدث عن آدم وزوجه، على حين يستعمل لفظ «امرأة» في مثل امرأة العزيز، وامرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة فرعون. وقد يبدو من اليسير أن

kitabweb-2013.forumaroc.net

يقوم أحد اللفظين مقام الآخر، وكلاهما من الألفاظ القرآنية، فنقول في «زوج آدم» مثلا امرأة آدم... وذلك ما يأباه البيان المعجز»[1].

ثم تعلل عائشة عبد الرحمن مغزى الحكمة في تباين استخدام هذين اللفظين: «ونتدبر سياق استعمال القرآن للكلمتين فيهدينا إلى سر الدلالة: كلمة «زوج» تأتي حين تكون الزوجية هنا مناط الموقف: حكمة وآية، أو تشريعاً وحكماً؛ في آية الزوجية، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١) ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤) فإذا تعطلت آيتها من السكن والمودة والرحمة بخيانة أو تباين في العقيدة، فامرأة لا زوج: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ (يوسف: ٣٠)، ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ (التحريم: ١٠) «امرأة فرعون» وقد تعطلت آية الزوجية بينهما بإيمانها وكفره، (التحريم: ١١)

(١) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١م)، ص ٢١٢.

kitabweb-2013.forumaroc.net

وحكمة الزوجية في الإنسان وسائر الكائنات الحية من حيوان ونبات هي اتصال الحياة بالتوالد، وفي هذا السياق يكون المقام لكلمة زوج... فإذا تعطلت حكمة الزوجية في البشر بعقم، أو ترمل، فامرأة لا زوج، كالآيات في امرأة إبراهيم (هود: ٧١) (الذاريات: ٢٩) وامرأة عمران (آل عمران: ٣٥).

وتوالي عائشة عبد الرحمن استقراء مواطن اختلاف الدلالة بين لفظتي «الزوج والمرأة» مبينة أن عنصر الإنجاب عامل آخر لاستخدام لفظ «الزوج» دون لفظ «المرأة» فتقول: «ويضرع زكريا إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ (مريم: ٥)، ثم لمّا استجاب له ربه، وحققت الزوجية حكمتها كانت الآية: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾ (الأنبياء: ٩٠). وفي آيات التشريع تتعلق الأحكام بالزوج والأزواج حين تكون الزوجية قائمة: واقعاً أو حكماً؛ كأحكام المواريث، وعدة اللواتي توفى أزواجهن (البقرة: ٢٣٤). أما حين تنقطع العلاقة الزوجية بطلاق أو إيلاء، فالأحكام متعلقة بالنساء لا بالأزواج»[١].

---

(١) المرجع السابق، ص ٢١٢ ــ ٢١٤.

kitabweb-2013.forumaroc.net

وعلى ضوء ما تقدم نستطيع تبين المعايير التي ينبغي توفرها حتى تحظى المرأة بلقب الزوجة، وهي: أن تكون العلاقة الزوجية قائمة بين الزوجين، وأن تكون هذه العلاقة قد توطدت بالتآلف الفكري والنفسي والحسي، وذلك بأن تكون قد أنجبت له، وعلى دينه، وذات وفاء له. فإن اختل عنصر واحد من هذه العناصر كانت «امرأة» لا «زوج».

ومع استقراء السياق القرآني الذي يشكل مرجعية دلالية تحسم قضية الترادف اللفظي ما نجده من تحديد مفهوم، «الأب» و«الوالد» فمفهوم الأب أعم وأشمل من الوالد؛ إذ يندرج في تضاعيفه معنى: الجد، العم، الأب الوالد، وهذا ما نلحظه في قوله تعالى حكاية على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ (البقرة: ١٣٣).

فالأبوة هنا بمعناها الشامل تضمنت: الجد «إبراهيم» والعم «إسماعيل» والأب الوالد «إسحق».

ومن الألفاظ الأخرى التي نقف عند مؤداها الدلالي المحدد من السياق القرآني ما نجده في لفظتي «الواحد»، «الأحد»، فلفظة

kitabweb-2013.forumaroc.net

«الأحد» تشع دلالتها في آفاق عدة تحدد خصوصيتها المعجمية: منها: أنها صفة من صفات الله تعالى في: ذاته، وصفاته، وأفعاله. وقد ورد لفظ «أحد» صفة من صفات الله جل جلاله مرة واحدة في القرآن الكريم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١). ومن خصوصية هذا اللفظ أنه يستوي فيه المذكر والمؤنث ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ (الأحزاب: ٣٢) بخلاف الواحد فلا يقال «كواحد من النساء»، بل «كواحدة»[١].

وفضلاً عن ذلك فلفظ «الأحد» تنسحب دلالته على الإفراد والجمع ﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ (الحاقة: ٤٧) إلى جانب أن هذا اللفظ يشتق منه صيغة للجمع، فيقال: «الآحدون» و«الآحاد» أما «الواحد» فلا جمع له من لفظه، إنما يقال: اثنان، ثلاثة، أربعة ... أ لخ. غير أن لفظ «الواحد» قد يطلق على أكثر من شيء: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾ (البقرة: ٦١)، وهم يقصدون بالطعام الواحد «المن والسلوى»، إذا كانوا يأكلون أحدهما بالآخر، ولذلك قالوا: طعام واحد[٢].

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، (القاهرة: شركة سفير. ٥/٢٨١-٢٨٢.

(٢) المرجع السابق، ٥/٢٨٢.

kitabweb-2013.forumaroc.net

١ـ اختلاف الدلالة باختلاف بنية الكلمة:

والسياق القرآني يعد المرجعية الدلالية للألفاظ التي تختلف معانيها باختلاف حركة بنيتها اللغوية، وهذا الاختلاف رغم تعدده المعنوي يلتقي حول الجذر اللغوي للكلمة؛ من هذه الكلمات التي وردت بمعانٍ عدة، كلمة «الجنة» التي شكلت مثلثاً دلالياً تراءى بفتح الجيم، وكسرها، وضمها، علماً بأن الجذر اللغوي «جنن» يدور حول الغطاء والستر.

ولدى تأمل هذا التعدد الدلالي «للجنة» بدءاً من فتح الجيم، فنجدها تأتي بمعنى دار النعيم التي أعدها الله لعباده المتقين: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الزخرف: ٧٢). وتأتي أيضاً بمعنى الحديقة ذات النخل والشجر: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ (القلم: ١٧) وكلتا الجنتين تضمنتا معنى الستر والغطاء لكثرة الأشجار وكثافة الأغصان، و«الجنة» ـ بكسر الجيم ـ تدل على عالم الجن مقابل عالم الإنس: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ (الناس: ٦) كذلك تدل على عالم الملائكة ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ (الصافات: ١٥٨). وذلك لاستتار الجن والملائكة عن الأنظار. كما أن الجِنة ــ بكسر الجيم ــ تدل على الذي أصابه الجنون فحجب عقله ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ (المؤمنون: ١٧).

kitabweb-2013.forumaroc.net

ويرد معنى «الجُنة» بضم الجيم ليدل على الستر والوقاية على سبيل التعبير المجازي ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ (المنافقون: ٢) أي اتخذوا أيمانهم ستراً وغطاءً لنفاقهم ليوهموا بصدق اعتقادهم.

٢ ـ البعد الدلالي للمشترك اللفظي:

ويطلعنا السياق القرآني على ضرب آخر من التنوع اللفظي، وهو ما يطلق عليه المشترك اللفظي، الذي تنهض فيه اللفظة بمعان عدة، وهذا النوع أطلق عليه علماء الدراسات القرآنية «النظائر»، «وقد جعل بعضهم ذلك من أنواع معجزات القرآن حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجهاً وأكثر وأقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر»[1]. ومن هذه الألفاظ التي أوردها السيوطي في كتابه: الإتقان في علوم القرآن، «الهدى» حيث جاءت على سبعة عشر وجهاً:

- بمعنى الثبات: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة: ٦).
- والبيان: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ ﴾ (البقرة: ٥).
- والدين: ﴿ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٧٣).

---

(١) السيوطي، الإتقان، ١/ ١٤١.

kitabweb-2013.forumaroc.net

- والإيمان: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ (مريم: ٧٦).

- والدعاة: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد: ٧)، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ (الأنبياء: ٧٣).

- وبمعنى الرسل والكتب: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ (البقرة: ٣٨).

- والمعرفة: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٦).

- وبمعنى النبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ (البقرة: ١٥٩).

- وبمعنى القرآن: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ (النجم: ٢٣).

- والتوراة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ (غافر: ٥٣).

- والاسترجاع: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٧).

- والحجة: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨) بعد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ (البقرة: ٢٥٨) أي لا يهديهم حجة.

- والتوحيد: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ (القصص: ٥٧).

- والسنة: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠) ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ (الزخرف: ٢٢).

kitabweb-2013.forumaroc.net

- والإصلاح: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ (يوسف: ٥٢).

- والإلهام: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه: ٥٠).

- والتوبة: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ (الأعراف: ١٥٦).

- والإرشاد: ﴿أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ (القصص: ٢٢)[1].

ومن تعدد المعاني للكلمة الواحدة؛ الصلاة، وتأتي على عدة أوجه:

- الصلوات الخمس: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (البقرة: ٣).

- وصلاة العصر: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ (المائدة: ١٠٦).

- وصلاة الجمعة: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ (الجمعة: ٩).

- والجنازة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ (التوبة: ٨٤).

- والدعاء: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة: ١٠٣).

- والدين: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ (هود: ٨٧).

- والقراءة: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ (الإسراء: ١١٠).

---

(١) المصدر السابق، ١/١٤٢.

kitabweb-2013.forumaroc.net

- والرحمة والاستغفار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ (الأحزاب: ٥٦).

- مواضع الصلاة: ﴿وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾ (الحج: ٤٠) ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (النساء: ٤٣)[1].

ومن الكلمات القرآنية ذات المعاني المتعددة: «الأمة» وتأتي وفق معان عدة، منها:

- الدين ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ (الزخرف: ٢٢) وقيل: لا أمة له: أي لا دين له.

- وكل جيل من الناس أمة: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ (البقرة: ٢١٣).

- والإمام المقتدى به: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ (النحل: ١٢٠).

- وجماعة العلماء: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

- وفترة زمنية ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ (يوسف: ٤٥) أي بعد حين[2].

---

(١) المصدر السابق، ١/١٤٢.

(٢) أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٦هـ)، ١/٢٧-٢٨.

kitabweb-2013.forumaroc.net

٣ ـ ألفاظ جديدة أحدثها نزول القرآن:

ويطلعنا السياق القرآني على ألفاظ لم يسبق استخدامها قبل نزول القرآن، حيث دعت الرسالة المحمدية لظهور ألفاظ تواكب الحياة الجديدة، مما أوجد نوعاً من التجديد اللفظي في اللغة، يقول محمد المبارك: «من الألفاظ ما هو جديد في استعماله للمعنى الذي استعمل له، «كالحاقة» و«القارعة» و«الواقعة» وكلها ألفاظ معروفة من حيث اشتقاقها، ولكنها جديدة في إطلاقها على معنى يوم القيامة.. وكذلك لفظ «الحساب» فقد استعمل في السورة بمعنى حساب الإنسان على أعماله في الحياة الدنيا لا بالمعنى العام..»[١].

وإلى جانب الألفاظ التي استخدمها القرآن الكريم في معان جديدة كانت هناك ألفاظ ابتدأها التعبير القرآني ابتداءً مثل: «الفرقان، الكفر، الإيمان، الإشراك، الإسلام، النفاق، الصوم، الزكاة، التيمم، الركوع، السجود، وغير ذلك من ألفاظ الدين الحنيف... »[٢]. وكل ذلك بفضل القرآن الكريم فهو الذي حفظ العربية من الضياع.. وثاني آثاره أنه حوّل العربية إلى لغة ذات دين سماوي باهر»[٣].

---

(١) محمد المبارك، دراسة لنصوص من القرآن، ط ٤ (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣م)، ص ٤٥.

(٢) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، ط ٦، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣م) ص ٣٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٢.

kitabweb-2013.forumaroc.net

ب. خصائص صرفية:

شكلت الخصائص الصرفية المسار الثاني في إطار مبحث السياق القرآني، إذ شكلت مع الخصائص اللغوية ركيزة معرفية مشتركة لبيان خصوصية النظم القرآني وتعميق مقاصده، ومن هذه السمات ما نجدها قد كشفت عن أبعاد معرفية تنظّم حياة المجتمع المسلم من خلال:

١ ـ الدور الوظيفي للجمع والإفراد:

حققت بعض صيغ الجموع بعداً دلالياً جسدت قانون التكافل الاجتماعي في المجتمع الإسلامي، وذلك من خلال تتبع صيغة جمع «أخ» في السياق القرآني؛ فهذه الصيغة نجدها قد جُمِعتْ على «إخوة» و«إخوان» وكل واحدة نهضت بمؤدى دلالي خاص؛ فصيغة «إخوة» أبانت عن أخوة الدم والنسب: ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ﴾ (يوسف: ٥٨)، ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ﴾ (النساء: ١١).

أما صيغة «إخوان» فنهضت بمعنى أخوّة المبدأ والمنهج، حتى وإن كان المتآخون من جنس مختلف: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ (الإسراء: ٢٧).

kitabweb-2013.forumaroc.net

ومع هذه الخصوصية لكلتا الصيغتين نجد أن أخوة الهدف والمنهج ترقى وتتسامى إلى مصافّ أخوة النسب، فيصبح إخوان الدين أخوة في النسب: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)، ووفق هذا المبدأ الأخوي يجد المؤمن الحق أن المسلمين كُلهم رحمٌ له عندما يسلسل أنسابهم. ومصداق ذلك أن مريم البتول عندما جمعتها مع هارون صفة الصلاح والتقوى، ناداها القرآن: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ (مريم: ٢٨) مع أن بينهما أجيالاً؛ هارون من عهد موسى عليهما السلام، ومريم البتول والدة عيسى عليهما السلام.

والسياق القرآني يطلعنا على لون آخر من الصياغة الصرفية لصيغتي الإفراد والجمع، مما يفصح عن مآل الابتعاد عن المنهج الرباني، وأثر ذلك على كيان المجتمع المسلم، من ذلك ما نجده في إفراد «النور» وجمع «الظلمات» وإفراد «الحق» وجمع «الباطل»، وهذا المغزى الدلالي يبينه لنا صاحب محاسن التأويل: «وتأمل كيف قال تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ (البقرة: ١٧) فوحّده، ثم قال: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ فجمعها، فإن الحق واحد: هو صراط الله المستقيم، الذي لا صراط يوصل سواه... بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة ومتشعبة؛ ولهذا يفرد الله سبحانه «الحق» ويجمع «الباطل»،

kitabweb-2013.forumaroc.net

كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ (البقرة: ٢٥٧) وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ (الأنعام: ١٥٣) فجمع سبل الباطل، ووحّد طريق الحق[1].

جـ. خصائص بلاغية:

مثلت أدوات الصياغة البلاغية المسار الثالث للنظم القرآني في ثنايا مبحث السياق القرآني العام، وقد تآزرت مع نظيرتيها: اللغوية والصرفية، لتشكل أرضية مشتركة لخصوصية التعبير القرآني وأثرها في الإفصاح عن أهداف الكتاب الكريم، ومن هذه السمات البلاغية:

التوظيف الدلالي للذكر والحذف:

ونتلمس هذه السمة البلاغية في إسناد الخيرات للمنعم، وحذف الفاعل في مقابلتهما[2]؛ فنجد في قوله تعالى: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ (الفاتحة: ٧) وقد أضاف النعمة للمنعم، وحذف فاعل الغضب في ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ (الفاتحة: ٧).

---

(١) محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط ٢ (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨م) ٢/٦٢.

(٢) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، تحقيق محمد حامد فقي، (مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٦م). ١/١٢.

kitabweb-2013.forumaroc.net

ويعلل العلامة ابن قيم الجوزية علة هذا التوظيف البلاغي: «إن النعمة هي الخير والفضل، والغضب من باب الانتقام، والعدل والرحمة تغلب الغضب، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين وأسبقهما وأقواهما»[1].

ويشير ابن القيم على ورود هذه السمة في مواضع أخرى من السياق القرآني وفق هذه الخصوصية الدلالية، منها ما جاء على لسان مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (الجن: ١٠) ومنه قول الخضر في شأن الفتية: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ (الكهف: ٧٩) وقوله في شأن الجدار واليتيمين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ (الكهف: ٨٢) وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧) وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ (المائدة: ٣)، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ (النساء: ٢٣)، ثم قال: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ (النساء: ٢٤)[2].

---

(١) المرجع السابق، ١/١٢.

(٢) المرجع السابق، ١/١٢.

kitabweb-2013.forumaroc.net

ولدى تلمس هذه السمة البلاغية في مواضع أخرى من السياق القرآني نجدها قد ترددت على لسان أبي الأنبياء إبراهيم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾﴾ (الشعراء: ٧٨-٨١)، فقد أسند إبراهيم عليه السلام لله سبحانه الصفات الخيرة: الخلق، الهداية، الإطعام، الإسقاء، الشفاء، الموت، الإحياء، في حين نسب إليه ما ليس بمستحب: «المرض»، وهذه السمة البلاغية قد جسدت لنا صورة من خُلُقْ الأنبياء، وأبانت عن منهج القرآن في تربية النفس الإنسانية، في الإقتداء بخلق الأنبياء؛ بالتزام الأدب مع الله سبحانه؛ فالشر لا ينسب إليه أدباً، وإن كان منه تقديراً.

kitabweb-2013.forumaroc.net

kitabweb-2013.forumaroc.net

٢ـ الإعجاز في الآية الواحدة

شكلت الآية القرآنية المبحث الثاني من الإعجاز القرآني، بما اتسمت به من مقومات تعبيرية خاصة، ألقت بظلالها على السياق الدلالي مجليةً آفاق التنزيل الحكيم بأدوات الصياغة: اللغوية، والصرفية، والبلاغية.

أ ـ خصائص لغوية:

من السمات اللغوية التي نلحظها على صعيد الآية الواحدة دقة أدائها لمقام السياق وروحه، ويتجلى ذلك في الآيات الدالة على:

إصابة المعنى: ونتبين هذه الخصوصية اللغوية من خلال المقارنة بين سياقين متشابهين؛ السياق الأول ورد على لسان زكريا عليه السلام عندما تضرع إلى ربه ليهبه ذريةً صالحة، ثم جاءت الاستجابة مع وجود الموانع لهذا الإنجاب من كبر السن ووجود العقم: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ (آل عمران: ٤٠). ففي هذا السياق وردت لفظة «يفعل» ولم يقل «يخلق»؛ لأن الفعل هنا يناسب مقام وجود الزوج والزوجة، وإن كان وجود العقم والشيخوخة مانعا للإنجاب.

kitabweb-2013.forumaroc.net

وجاء السياق الثاني على لسان التقية الصالحة «مريم بنت عمران»، عندما تعجبت من مجيء الولد، وهي ليست بذات زوج، ولم تكن ارتكبت الإثم: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ (آل عمران: ٤٧).

ففي هذا السياق وردت لفظة «يخلق» ولم يقل «يفعل»؛ لأن خلق عيسى عليه السلام هو خرق للناموس الكوني في سنن الإنجاب؛ هو إيجاد واختراع من غير سبب يؤدي إليه، فناسب المقام هنا استخدام لفظ «يخلق» دون «يفعل» وهذه الخصوصية اللغوية للآية القرآنية قد جسدت عظمة القدرة الإلهية في الإيجاد والخلق، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢).

ومن الآيات الأخرى التي نتلمس فيها دقة إصابة المعنى من خلال سياقين متشابهين ما نجده في قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (إبراهيم: ١)، هذه الآية الكريمة أفصحت عن عمومية الرسالة المحمدية، وهذه العمومية نهضت بها لفظة «الناس» لتبرز ماهية هذه الرسالة، التي جاءت للبشر كافة لتكون خاتمة الرسالات السماوية، بخلاف الرسائل

kitabweb-2013.forumaroc.net

الأخرى التي جاءت مقيدة بزمان محدد، ومكان معين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ (إبراهيم: ٥) فلفظة «قومك» بيان لخصوصية رسالة موسى عليه السلام، وأنها مقيدة بقومه وزمانه فحسب.

ومن ثم تآزرت اللفظتان في سياقهما العام بطرح هذا المفهوم المعرفي لماهية الرسائل السماوية بإيجاز بالغ، ودقة متناهية قد يتطلب التنويه عنه بعبارات عدة. يقول أحمد مختار عمر: «وإذا كانت رسالة كل رسول محكومة بزمان معين، ومكان معين، وشعب معين، وكانت معجزة كل رسول تلائم هذه الغاية من ناحية، وترتبط بمكان نزولها وزمانه من ناحية أخرى فقد كانت رسالة محمد ﷺ شاملة لكافة الأمكنة، عامة لجميع الخلق، باقية ما بقيت السموات، والأرض...»[١].

ب ـ خصائص صرفية:

ونواكب بلاغة الإعجاز القرآني على صعيد الآية الواحدة من خلال سماتها الصرفية التي شكلت معلماً آخر من معالم الأسلوب المعجز الذي يفصح عن آفاق التنزيل الحكيم. ونلمس ذلك في:

---

(١) أحمد مختار عمر، قاموس القرآن الكريم (لغة القرآن)، الكويت: مؤسسة التقدم العلمي، ١٩٣٩م) ص٧.

kitabweb-2013.forumaroc.net

١ـ البعد الرمزي لصيغ الاشتقاق: ونتأمل مؤدى هذا الاستخدام وطاقته التأثيرية من خلال قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ (هود: ١١٣)

هذه الآية تطرح سؤالاً فحواه: لماذا كان هذا العقاب مساً للنار لا دخولاً فيها؟!

ولدى إنعام النظر بالآية الكريمة تتجلى الإجابة من ثنايا تشكيل بعض الصيغ الصرفية؛ فنجد أن «ظلموا» فعل ماض مسند لواو الجماعة، وصيغة «ظالم» اسم فاعل يفيد التحول والآية حذرت من الميل للظالمين؛ وهذا يعني أن صفة الظلم غير ملازمة لهم، وقد يتحولون عنها في قادمات أيامهم، بخلاف ما لو جاءت الكلمة على صيغة المبالغة «ظلمة» على وزن «فَعَلَة» التي تفيد الثبوت. فلم يقل: ولا تركنوا إلى الظلمة فتمسكم النار.

وهنا تتجلى عدالة الله سبحانه وتعالى بأن جعل الجزاء من جنس العمل، فيكون عقاب الميل اليسير إلى الذين ظلموا أنفسهم فترة من حياتهم بقدر فترة هذا الميل مساً للنار لا دخولاً فيها أو خلوداً بها. يقول الإمام البيضاوي في هذا

kitabweb-2013.forumaroc.net

الصدد: «ولا تركنوا إلى الذين ظلموا، ولا تميلوا إليهم أدنى ميل، فإن الركون هو الميل اليسير: كالتزيي بزيهم، وتعظيم ذكرهم، فتمسكم النار بركونكم إليهم، وإذا كان الركون إلى من وجد منه ما يُسمى ظلماً، كذلك فما ظنك بالركون إلى الظالمين، أي الموسومين بالظلم، ثم الميل إليهم كل الميل، ثم بالظلم نفسه، والانهماك فيه ؟!»[1].

وهكذا جسدت الآية بصيغها الصرفية قاعدة فقهية يُرتكز عليها في استنباط الأحكام الجزائية، بأن يكون الجزاء من جنس العمل. والله أعلم.

٢ـ **التجسيد المعنوي لصيغ المبالغة والتفضيل**: ومن هذه الصيغ التي نجد لها بعداً دلالياً متميزاً مختزلاً طاقة تعبيرية هائلة، ما ساقه التعبير القرآني في صيغتي: «محمد» و« أحمد».

وإذا استقرأنا الآيات التي ورد بها اسم الرسول الكريم محمد ﷺ، نجدها متضمنة هذين الاسمين: «محمد» «أحمد» وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ (آل

(١) عبدالله بن عمر البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (بيروت: دار الجيل، د.ت.)، ص ٢٨٥.

kitabweb-2013.forumaroc.net

عمران: ١٤٤) وقوله على لسان عيسى عليه السلام: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ (الصف: ٦). ولدى تأمل هاتين الصيغتين «محمد» «أحمد» من حيث بنيتهما اللغوية نجد أنهما مشتقتان من «الحمد» ومع ذلك فإن صيغة الاشتقاق لكل منهما روعي فيها بعداً دلالياً لم يراع في الأخرى؟ إذ نهضت بوظيفة متمايزة عنها! فصيغة «أحمد» جاءت على صيغة اسم التفضيل «أفعل» من اسم الفاعل «حامد» الذي وقع منه فعل الحمد فكان «حامد». أما « أحمد» فقد زاد في أداء الحمد عن «حامد» فكان «أحمد».

ويأتي اسم محمّد على صيغة «مفعّل» بزيادة التضعيف على صيغة اشتقاق اسم المفعول محمود من «حمد»، الذي وصف بالحمد فكان محموداً.

وعلى هذا فإن صيغة التضعيف التي اشتق منها اسم «محمّد» تحمل في ثناياها زيادة في معنى الحمد ــ لأن كل زيادة في المبنى دلالة على زيادة في المعنى - كما يُستشعر منها صفة ثبات هذا الحمد، ومن ثمّ فإن اسم «أحمد» قد

kitabweb-2013.forumaroc.net

جسّد حمد الله مراراً؛ والحمد لا يتأتى إلا استشعاراً لفضل المنعم، وأداء حقوقه بالقلب واللسان والجوارح. بينما تضمن اسم «محمد» طاقة مكثفة من حمد الناس وثنائهم تحقيقاً لما وصفه به سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤) فكأن الله سبحانه وتعالى قد جمع في اسمي «محمد وأحمد» صفتي: المجاهدة والاصطفاء، ومن ثمّ كانت هاتان الصفتان الينبوع الثّر الذي انبثقت عنه محصلة المعاني التي وصف بها الرسول الكريم؛ الصفات التي جسدت فيه قيم وفضائل القرآن، طبقاً لما وصفته به السيدة عائشة: «كان خلقه القرآن» أو بما وصفه به أصحابه: «كان قرآناً يمشي على الأرض».

جـ- خصائص بلاغية:

شكلت السمات البلاغية على صعيد الآية الواحدة مصدراً خصباً من مصادر التعبير القرآني، وبيان أثرها الدلالي في استلهام آفاق البيان المعجز، ومن هذه السمات ما نجده في:

١- التوظيف الدلالي للإنشاء الطلبي: جسدت هذه الصيغة على صعيد الآية الواحدة لوناً من وجوه الإعجاز القرآني؛ إذ شكلت

kitabweb-2013.forumaroc.net

الآية الواحدة - على قِصَرها وإيجازها - منظومة لعدة ألوان بلاغية، صعّدت في النفس آفاق المعنى، وجلال الإعجاز ولنصغ لقوله تعالى حكايةً على لسان النملة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ (النمل: ١٨).

بعد تأمل هذه الآية، ومجاوزة حالة الانبهار بهذه المخلوقة العجيبة التي تكاد تكون أصغر مخلوقات الله حجماً، وأضعفهم شأناً، كيف نصَّبتْ من نفسها واعظة وحكيمة! بل إن حالة الانبهار بهذا الجانب تكاد تتضاءل عندما نعمق النظر بهذا التعبير الراقي الموجز الذي تضمن معنى الحذر والاشتفاق، والإباء، والذكاء، واختزل في ثناياه عدة ألوان بلاغية تفوهت بها هذه المخلوقة العجيبة جملةً واحدة؛ فالنملة عندما قالت: «يا» نادتْ، «أيها» عيّنتْ، «ادخلوا» أمرت، «مساكنكم» نصّتْ «لا يحطمنّكم» حذّرتْ «سليمان» خصّتْ «جنوده» عمّمتْ، «وهم لا يشعرون» اعتذرتْ، فيا لها من نملة حصيفة! فهي قد نطقت بحق، وحكمت بعدل! وهذه البلاغة الأدائية على لسان

kitabweb-2013.forumaroc.net

النملة جعلت بعض العلماء يعدون هذه الآية من عجائب القرآن[1].

ومن السمات البلاغية التي نتلمسها في الآية الواحدة ما نجده على صعيد:

٢- ثنائية الأداء الوظيفي للاستفهام الإنكاري: نهض الاستفهام الإنكاري بوظيفة معرفية مزدوجة، وظيفة الوعد والوعيد في آن واحد؛ هذه الوظيفة قد ألقت بظلالها المعنوية مُبصِّرة بنعم الله ونقمه في حياتين متباينتين؛ دار الفناء، ودار البقاء، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ١٣) ولدى تأمل المواضع التي وردت فيها هذه الآية نجدها قد ترددت في مواضع النعم، كما ترددت عند ذكر النقم. ومن نماذجها في مواضع النعم قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾ (الرحمن: ١٠-١٢)

---

(١) جاء في تفسير ابن الجوزي عن قوله تعالى: {قالت نملة ...} «أي صاحت بصوت، فلما كان ذلك الصوت مفهوما عبر عنه بالقول، ولما نطق النمل كما ينطق بنو آدم أجرى مجرى الآدميين فقيل: «ادخلوا» وألهم الله تلك النملة معرفة سليمان معجزاً له»، ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (المكتب الإسلامي، د. ت.)، ١٦٢/٦.

kitabweb-2013.forumaroc.net

هذا جانب من النعم التي صورتها سورة الرحمن، ثم كررت بعدها صيغة الاستفهام الإنكاري، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ولقد حسن التكرار تلافياً للجحود والإنكار، لاسيما وأن الاستفهام الإنكاري تقريري في مضمونه، ويتلقى الإجابة التلقائية الاعترافية من المخاطب نفسه؛ «إذ كلما ذكر الله نعمة وبّخ وأنكر على من كذب بها»[1].

وكيف للإنسان أن ينكر هذه النعم العظمى وقوام حياته ومعاشه منها وعليها؟! فالأرض بسطها المنعم لعباده ليستقروا عليها، وينتفعوا بخيراتها، من شتى أنواع النباتات المختلفة الطعوم والألوان والروائح: يقول صاحب البحر المحيط: «فيها فاكهة: ضروب مما يتفكه به ... ونكّر لفظها لأن الانتفاع بها دون الانتفاع بما يذكر بعدها، ثم ثنى بالنخل فذكر الأصل ولم يذكر ثمرتها، وهو التمر، لكثرة الانتفاع بها من: ليف، وسعف، وجريد، وجذوع، وجمار، وثمر، ثم أتى ثالثاً بالحب الذي هو قوام عيش الإنسان في أكثر الأقاليم، وهو البر والشعير، وكل ما له سنبل، ووصفه بقوله: ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ تنبيهاً على إنعامه عليهم بما يقوتهم من الحب، ويقوت

(١) محمد محمود حجازي التفسير الواضح، ط ٦، (مطبعة الاستقلال الكبرى، ١٩٧٥م، ٢١/١٢٧.

kitabweb-2013.forumaroc.net

بهائمهم... وبدأ بالفاكهة، وختم بالمشموم، وبينهما النخل والحب، ليحصل ما به يُتفكه، وما به يتقوت، وما به تقع اللذاذة من الرائحة الطيبة...»[1].

وإلى جانب ذكر هذه النعم العديدة تسوق السورة نفسها ألواناً من صنوف النقم: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ (الرحمن: ٣٣)[2]، ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾ في هذه الآيات يتجه الخطاب القرآني إلى الثقلين: الإنس والجن، بصفة الأمر الذي يخرج من مراده الحقيقي إلى الأمر التعجيزي الذي لا يستطيعون حياله الفرار من قضاء الله وعقابه إلا بقوة وقهر، وأنى لهم ذلك؟! لن يكون لهم هذا الفرار

---

(١) أبو حيان النحوي، البحر المحيط (الرياض: مكتبة النصر الحديثة، د.ت) ٨/١٩.

(٢) هذه الآية فُهمت لدى بعض المثقفين بأن السلطان الذي جاء فيها يُراد به «سلطان العلم» وبخاصة بعد أن تم ارتياد الفضاء. وقد أغفل هؤلاء قراءة الآية في سياقها العام مما ينافي هذا الفهم. وقد فسر البيضاوي الآية من خلال سياقها فقال: « ... إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من الله، فارين من قضائه، فانفذوا أي فاخرجوا، «لا تنفذون» لا تقدرون على النفوذ «إلا بسلطان» إلا بقوة وقهر، وأنى لكم»، البيضاوي، أنوار التنزيل، ٨/١٩٠.

kitabweb-2013.forumaroc.net

لما يتعقبهم ويرصدهم من العذاب؛ وأي عـذاب؟! إنـه صـور مـن الهول والفزع فوق طاقة البشر! صور لا يستطيع خيـال الإنسـان تمثلها، فكيف بمعاينتها، ومعايشة أهوالها؟!

وبعد أن رسم التعبير القرآني هذه الصور لصنوف الـنقم وردت صيغة الاستفهام الإنكاري لتأكيـدها: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بمعنى: عن أي من هذه النعم العديـدة والجليلـة تجحـدون؟! وهـنـا ينهض استفهام آخـر مـن أغـوار الـنفس يقابـل الاسـتفهام الأول قائلاً: ما هي هذه النعم التي نوهـت عنهـا الآيـات؟! إنهـا ليسـت سوى صنوف من ألوان العذاب!! ومـن خـلال هـذين التسـاؤلين ينهض سؤال ثالث يستفسر عن الحكمة في ذكر هـذه الـنقم، ثـم تقريرها بأنها من ألوان النعم؟!

والإجابـة علـى هـذه التسـاؤلات تتجلـى في أثـر الـنظم القرآنـي علـى السـياق الـدلالي، بغيـة تعميـق مقاصـد التنزيـل الحكـيم! وذلـك بتجسيد رحمـة الله بعبـاده، ورأفتـه بهـم، قبـل أن ينـالهم وبـال أعمـالهم، ليتـاح لهـم فرصـة مراجعـة الـنفس قبـل فـوات الأوان: فتبصـيرنا بمـآل أعمالنا في الحيـاة الـدنيا هـي مـن أجـل نعـم المـنعم علينـا. وكمـا قالـت العرب: من حَذَّرَكَ فقد بشَّرك.

kitabweb-2013.forumaroc.net

وفي هذا الصدد من ذكر آيات النقم وتوظيفها في مجال النعم، يقول الخطابي:... فإن قيل: إذا كان المعنى في تكرر قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تجديد ذكر النعم في هذه السورة، واقتضاء الشكر عليها، فما معنى قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ ثم تبعه قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وأي موضع نعمة ها هنا؟ وهو إنما يتوعدهم بلهب السعير، والدخان المستطير قيل: إن نعمة الله تعالى فيما أنذر به، وحذر من عقوباته على معاصيه ليحذروها فيرتدعوا عنها بإزاء نعمه على ما وعد، وبشّر من ثوابه على طاعته، ليرغبوا فيها، ويحرصوا عليها، وإنما تُحقّق معرفة الشيء بأن يُعتبر بضده ليوقف على حده، والوعد والوعيد وإن تقابلا في ذواتيهما فإنهما متوازيان في موضع النعم بالتوقيف على مآل أمرهما، والإبانة على عواقب مصيرهما»[1].

٣ ـ **البعد الوظيفي للتذييل**: حقق هذا اللون البلاغي دوراً واضحاً في إعجاز النظم القرآني؛ تجلى في التناسق الدقيق بين دقة الحكم الشرعي والسياق الدلالي. أو بعبارة أخرى التلاحم والتناسق المعنوي بين صدر الآية وعجزها، بحيث لو ختمت الآية بصيغة أخرى من صيغ

---

(١) حمد إبراهيم الخطابي، إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، ط ٤، (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، القاهرة: دار المعارف، د.ت.) ص٣٥.

kitabweb-2013.forumaroc.net

التذييل الأخرى لانتقض الحكم بين الختام والاستهلال، وهذا ما يتضح في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٨).

ربما يلفت الانتباه في هذه الآية للوهلة الأولى ما طرحته من حكم القصاص لجريمة السرقة. وقد لا ننعم النظر ملياً في ختامها فيما لو جاءت على نحو آخر من التعقيب، مثل «والله غفور رحيم» أو «والله سميع عليم» غير أن دقة النظم بين البدء والختام تجعلنا في حالة إعجاب تستأثر بالفكر والوجدان.

ولعل خير من يطلعنا على دقة هذه الصياغة من كان في موضع هذا الإعجاب: يقول الأصمعي: «قرأت هذه الآية، وإلى جنبي أعرابي، فقلتُ: (والله غفور رحيم) سهواً، فقال: الأعرابي: كلام من هذا؟ قلت: كلام الله! قال: أعِدْ، فأعدتُ: والله عزيزٌ حكيم. فقال له: أصَبْتَ، كلام الله! فقلت له: أتقرأ القرآن؟ قال: لا. قلت: فمن أين علمت أني أخطأت؟ فقال: يا هذا، عزَّ فحكم فقطع؛ ولو غفر ورحم لما قطع!!»[1].

(١) ابن الجوزي، زاد المسير، ٢/٣٥٤.

kitabweb-2013.forumaroc.net

٤ ـ دور الإسناد الخبري: شكل الإسناد الخبري ركيزة مرجعية على صعيد تنظيم المجتمع الإسلامي، مؤصلاً فقه المنهج الدعوي من خلال طرح طريقة الرسل في التدرج المرحلي لتبليغ الدعوة وفق استجابة المبلّغين.

ونتلمس هذا النهج في الآيات التي ساقت لنا قصة أهل القرية المكذبين لرسلهم – على طريقة أسلوب القرآن في إيراد القصص للعظة والعبرة ـ حيث تنهض كل آية بخطوة مرحلية في إطار المهمة الدعوية؟ قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ (يس: ١٣-١٤) وهذا التكذيب من المبلّغين اقتضى تأكيد المهمة الدعوية بمؤكد واحد، علها تلقى استجابة في نفوسهم؛ لأن الخبر الأول جاء غفلاً من التوكيد، لأنه مجرد إخبار لخالي الذهن منه، ومن ثم جاءت الآية الثانية تؤكد مهمة الرسل الدعوية بعد أن لاقت دعوتهم التشكيك فيها: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ (يس: ١٤) بيد أن هذا التوكيد لم يجابه إلا بمزيد من الإعراض والتشكيك حتى بلغ مبلغ الإنكار: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ (يس: ١٥).

kitabweb-2013.forumaroc.net

وجريا على عادة الرسل في احتواء أقوامهم، وصبرهم على تكذيبهم، وعدم اليأس من هدايتهم فقد أعادوا الكرة عليهم أملاً في هدايتهم، فلجؤوا إلى تعزيز دعوتهم بمؤكدات أخرى علّها تضع حداً لإنكارهم، فجاءت الآية التالية تؤدي هذه الغاية بمؤكدات ثلاث: «إن التوكيد» «لام التوكيد» إلى جانب علم الله سبحانه الذي هو أقوى عوامل هذا التوكيد ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ (يس: ١٦).

وهذا التدرج في مراحل عرض الخبر الدعوي الذي جسدته الآيات، وصنّفه علماء البلاغة بالطلبي، والابتدائي والإنكاري، وفق استجابة المتلقي قد أشار إليه صاحب التسهيل معللاً مقتضى عرض الآيات بين الإبلاغ والإنكار، فيقول: «قالوا إنا إليكم لمرسلون» إنما أكدوا الخبر هنا باللام؛ لأنه جواب المنكرين، بخلاف الموضع الأول فإنه مجرد إخبار»[1].

إلى جانب أن هذا التدرج في عرض الخبر قد جسد سنّة من سنن الحياة البشرية في الإعراض والإنكار إزاء الهداية

---

(١) محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق محمد عبد المنعم يونس، إبراهيم عوض، (القاهرة: دار الكتب الحديثة، د. ت.) ٣/١٦١.

kitabweb-2013.forumaroc.net

والإرشاد، فضلاً عن طرحه للمنهج الراقي للتخاطب وأدب الحوار.

ومع صورة أخرى من صور التوكيد الخبري في إطار روعة النظم القرآني في الآية الواحدة نتلمس صورة أخرى من سنن الحياة البشرية إزاء الاستجابة الإيمانية، مما نجده في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ (البقرة: ١٢) وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ (البقرة: ١٣). هاتان الآيتان تمثلان فئة الضلال والنفاق إزاء الفئة الأولى فئة الجحود والنكران. الفئة الأولى تعلن الكفر بصريح القول، والفئة الثانية تبطن الكفر وتظهر الإيمان بزيف الكلام. ومن ثم جاء وصفهم الدقيق بما يجلوا خبايا نفوسهم بتعدد ألوان التوكيد فيهم للتنبيه على خطرهم وعظم فسادهم، فساقت الآية عدة مؤكدات هي «آلا» و«إن» والضمير المنفصل «هم» وتعريف الخبر في «المفسدون» و«السفهاء»، وينوه وهبة الزحيلي عن خصوصية هذا التنوع التوكيدي وأثره الاجتماعي: إن إفسادهم اقتضى هذا التنوع في التوكيد، لعدم إدراكهم خطورة عملهم الذي أصبح غريزة لهم، مركزة في طباعهم[1].

---

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (دمشق: دار الفكر، ١٩٩١م)، ١/٨٤.

kitabweb-2013.forumaroc.net

٥ ـ الدقة الأدائية للتصوير القرآني: تعددت وتنوعت ألوان التصوير القرآني، وشكلت عاملاً قوياً في تحريك المشاعر، وإعمال الفكر، وإثارة الخيال، محققة مقاصد القرآن بعمق وتنوع هذا التصوير. يقول سيد قطب عن مكانة التصوير القرآني ومظاهره: «إن التصوير هو القاعدة الأساسية في القرآن، وإن التخييل والتجسيم هما الظاهرتان البارزتان في هذا التصوير»[١].

ومن مظاهر هذا التخييل والتجسيم ما نجده في قوله تعالى مصوراً به شجرة الزقوم: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ (الصافات: ٦٥) ولدى تأمل هذه الآية يتبادر للذهن تساؤل: كيف يرسم الخيال البشري لشجرة الزقوم صورة للقبح يقيس بها على الأصل، وهو لم ير شجرة الزقوم، كما لم يشاهد رأس الشيطان؟! ثم كيف يشبه مجهول بمجهول والصورة وظيفتها تفسير المجهول بمعلوم؟!

هنا تتجسد دقة التصوير القرآني بتوسيع دائرة الصورة حتى يذهب خيال الإنسان كل مذهب في تمثل صورة

(١) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ط٧، (بيروت، القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٢م)، ص٨٧.

kitabweb-2013.forumaroc.net

للقبح؟ لاسيما إذا كان الطرف الأول من الصورة مفرداً (شجرة الزقوم) والطرف الآخر متعدداً (رؤوس الشياطين) فيكون مؤدى هذا التخييل صورة متناهية في القبح دون تحديد لهذا القبح، مما يُصعّد طاقة الصورة التأثيرية، ووظيفتها الدلالية.

kitabweb-2013.forumaroc.net

kitabweb-2013.forumaroc.net

٣ ـ الإعجاز في المفردة القرآنية

شكلت المفردة القرآنية المبحث الثالث للنظم القرآني مُشكِلة مع المبحثين الآخرين مثلثاً دلالياً يسبر أغوار النص القرآني، محققاً غاية التشريع الحكيم من خلال مسارات ثلاث: لغوية، صرفية، بلاغية.

آ ـ خصائص لغوية:

من الخصائص اللغوية التي نتلمسها على صعيد المفردة القرآنية:

١ ـ مراعاة الألفاظ لمقام السياق: ولدى تأمل هذا الاستخدام تبهرنا دقة معاني المفردات في الآيات التي قد يتراءى فيها التعارض الظاهري لدى الوهلة الأولى! بيد أن التأمل العميق لمعاني هذه المفردات، يُجلّي أبعادها، ويكشف عن دقة استخدامها في سياقها.

kitabweb-2013.forumaroc.net

ومن هذه الآيات ما ورد في وضع الضوابط لعلاقة الابن المسلم بأبيه الكافر، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (لقمان: ١٥) ثم نجد ضوابط هذه العلاقة في آية أخرى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ﴾ (المجادلة: ٢٢) هذه الآية قد توحي للذهن لدى القراءة الأولى أنها تعارض الآية السابقة: فالأية الأولى تحث الأبناء على إحسان معاملة الآباء، والثانية تنهاهم عن ذلك، مع أنه لا تعارض بين الآيتين لدى التعمق الدقيق بينهما لدلالة المفردتين: «يوادون» في الآية الأولى و«معروفاً»، في الثانية! حيث يتجلى التناسق الدقيق بينهما؛ فمعنى «الود» أن تكون بينك وبين المودود علاقة محبة. جاء في لسان العرب: «وددت الرجل أَوَدُّه وُداً: إذا أحببته»[1].

أما «المعروف» فلا يشترط فيه المحبة؛ لأن المعروف يبذله المرء لمن يحب، ولمن لا يحب؛ قال صاحب اللسان: «المعروف النَّصفَةُ، وحُسْنُ الصحبة مع الأهل وغيرهم من الناس»[2].

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة: «ودد».

(٢) المصدر السابق، مادة: «عرف».

kitabweb-2013.forumaroc.net

ومن هنا جاءت الآية الأولى تمنع إقامة علاقة ودية مع الوالدين غير المسلمين، لأن الإيمان لا يتجزّأ، ومن ضوابط هذا الإيمان أن يكون الحب والكره في الله[1]، وهذا الحب والكره ينسحبان حتى على الأبوين؛ لأن حب الله سبحانه أولى من حبهما، وبتحقق هذا الحب تنعقد أواصر الإيمان، في حين لا يمنع عدم الحب من تقديم المعروف لهما، وإحسان صحبتهما، اعترافاً بفضلهما.

ومن المفردات التي تسطع بقوة أدائها الدلالي، موضحة مفهوماً عقدياً، من خلال ما قد يتراءى بينها من تعارض ظاهري! ما نجده في مفردة «الهدى» فهي تأتي لتدل على أن الهداية أمر تكليفي يخضع لاستجابة ذاتية: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ (فصلت: ١٧) كما وردت في مواقع أخرى لتدل على أن الهداية أمر توقيفي من الله سبحانه، لا مجال فيه للإرادة الذاتية، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٧٣).

---

(١) جاء في صحيح البخاري: «الحب في الله، والبغض في الله من الإيمان»، انظر: محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، (دار الفكر، ١٩٨١م)، ١/ ٨.

kitabweb-2013.forumaroc.net

ولدى إعمال الفكر في الآيتين يتبدى التناسق التام بينهما من خلال فقه مدلول الهداية العقدي الذي أوحت به الآيتان، فالآية الأولى أشارت إلى هداية «الدلالة» وهي هداية عامة شاملة لجميع الخلق، هداية الدلالة للمنهج الرباني. والآية الثانية أشارت إلى النوع الثاني من الهداية؛ هداية «المعونة» وهي طاقة إضافية تكون رافداً لهداية الدلالة، والارتقاء بصاحبها إلى مرتبة سامية: مرتبة التقوى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (محمد: ١٧) وهذه المرتبة من الهداية ترقى بأصحابها إلى مكانة أثيرة في الجنة: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ۝ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ۝﴾ (ص: ٤٩، ٥٠).

٢ - **الكثافة الدلالية للمفردة القرآنية**: ترددت هذه السمة اللغوية بوضوح في كثير من المفردات القرآنية، ومن هذه المفردات ما نجده في مفردة «الحمد» في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: ٢) فهي قد أفادت إلى جانب حسن الافتتاح وروعة المطلع، المبالغة في الثناء على الله سبحانه، بما يليق بجلاله؛ لأن «اللام» في الحمد

kitabweb-2013.forumaroc.net

تضمنت معنى الاستغراق[1]، وهذا لا يتأتى لو جاءت اللفظة على الأصل، بصيغة: (أحمد الله رب العالمين).

ب ـ خصائص صرفية:

نهضت الخصائص الصرفية على صعيد المفردة القرآنية بوظيفة دلالية واضحة المعالم عمّقت أهداف الكتاب الكريم. وقد تراءى ذلك في:

١ ـ البعد الدلالي لصيغ المبالغة: اتسمت صيغ المبالغة بمخزون دلالي عميق يتكافأ مع دقة التشكيل اللغوي للصيغة بمعناها التوقيفي الاصطلاحي؛ وهذا ما نلحظه في اسمي الجلالة: «الرحمن» «الرحيم».

ولدى إنعام النظر بهاتين المفردتين نجد أنهما مشتقتان من «الرحمة» إلا أن الصيغة الاشتقاقية لكل منهما حملت في ثناياها بُعداً دلالياً لم يتوفر في الأخرى! فـ «الرحمن» تضمنت معنى عظيم الرحمة؛ لأن «فعلان» صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمته، ولا يلزم فيه الدوام كغضبان، ونعسان[2].

---

(١) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٩٨١م)، ١/ ١٢.
(٢) لأنها معدولة عن اسم الفاعل: راحم، غاضب، ناعس.

kitabweb-2013.forumaroc.net

أما صيغة «الرحيم» فتضمنت معنى دائم الرحمة، لأن «فعيل» تستخدم في الصفات الدائمة، ككريم، وظريف، فكأنه قيل «العظيم الرحمة الدائم الإحسان»[(1)].

يقول الإمام الطبري منوهاً عن الخواص الدلالية للرحمن والرحيم: «... هو أنه بالتسمية بالرحمن موصوف بعموم الرحمة جميع خلقه. وأنه بالتسمية بالرحيم موصوف بخصوص الرحمة بعض خلقه... وقد خصّ عباده المؤمنين في عاجل الدنيا بما لطف بهم من توفيقه إياهم لطاعته، والإيمان به وبرسله، واتباع أوامره، واجتناب معاصيه... كما قال جل ذكره: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[(2)].

ومن المفردات ذات الكثافة الدلالية ما نجده على صعيد المعاني الاشتقاقية لمفردة «المَلِك» حيث نجد هذه الصيغة قد اختزلت عدة مراحل للمِلْكية التي نجدها في اشتقاقات أخرى للمفردة: فمنها ما يأتي بمعنى «مَالِكْ» وهو الملك الذاتي للفرد، ويأتي منها «مَلِكْ» وهو الحاكم، ويأتي منها «مُلْكْ» وهو مالك من يملك.

(1) الصابوني، صفوة التفاسير، 1/12.

(2) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، (بيروت: دار الجيل، القاهرة: دار الحديث، 1987م)، 1/42.

kitabweb-2013.forumaroc.net

ولما كانت غاية التعبير القرآني التركيز على المفاهيم العقدية وترسيخها بالنفس الإنسانية، فقد جاء بصيغة الملكية من أصلها، لينبه الأذهان إلى أنه سيأتي اليوم الذي لا يوجد فيه مالك سواه:

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ (غافر: ١٦).

٢- **الوظيفة الدلالية للإسناد الجمعي:** شكلت صيغة الإسناد الجمعي ملمحاً بارزاً في تحقيق أهداف البيان القرآني، وذلك من خلال التلاحم الدقيق بين التشكيل الصرفي؛ والمفهوم العقدي، بحيث يساند أحدهما الآخر، ويتجلى ذلك في التشكيل الصرفي لمفردتي: «نعبد» «نستعين» من خلال ورودهما بصيغة الجمع، مع أن المتلفظ بهما فرد واحد. فلم يقل: (إياك أعبد، وإياك أستعين)، وحكمة هذا الإسناد الجمعي - والله أعلم - «للاعتراف بقصور العبد عن الوقوف في باب ملك الملوك، فكأنه يقول: أنا يا رب العبد الحقير الذليل، لا يليق بي أن أقف هذا الموقف في مناجاتك بمفردي، بل أنضم إلى سلك المؤمنين الموحدين، فتقبل دعائي في زمرتهم، فنحن جميعاً نعبدك، ونستعين بك»[1].

(١) الصابوني، صفوة التفاسير، ١/١٣.

kitabweb-2013.forumaroc.net

جـ - خصائص بلاغية:

حققت الخصائص البلاغية على صعيد المفردة القرآنية مرجعية مزدوجة تجلت على المستوى الديني والبلاغي، ونتلمس ذلك في:

١ - التصعيد الدلالي لصيغة التنكير: طرح هذا اللون البلاغي الاستعداد ليوم الدين ببلاغة التعبير على مستوى التنكير، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ (البقرة: ١٢٣)

في هذه الآية الكريمة جاء التنكير في مفردة «يوماً» لإفادة المبالغة والتهويل في شأن ذلك اليوم الذي يأخذ تصوره في النفس كل مأخذ لاستكناه أحداثه، وشدة أهواله، وهذه الصورة من الفزع النفسي لم تكن على هذا النحو من الجسامة فيما لو جاءت المفردة على صورة التعريف (واتقوا اليوم) لأن المعروف والمألوف لا تُخشى عواقبه، ومن ثمّ لا يُجدي التحذير منه لاجتناب عواقبه!

kitabweb-2013.forumaroc.net

٢ ـ **البعد الرمزي للتقديم والتأخير**: ومع مواكبة السمات البلاغية على صعيد المفردة القرآنية تتجلى سمة أخرى تبرز أثر النظم القرآني في بيان أهداف البيان المعجز، ويتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ (التحريم: ١١). هذه الآية الكريمة أفادت تجسيد صورة من صور الحب الإلهي؛ الحب الصادق المنزه عن المنافع، وهذه القاعدة الإيمانية تراءت من خلال تقديم «عندك» على «بيتاً» وهذا التقديم قد جسّد بأن امرأة فرعون قد آثرت جوار الله على نعيم الجنان؛ إذ لم تأت صياغة الآية على هذا النحو: (رب ابن لي بيتا عندك في الجنة)، وهذا دليل على عظم المحبة وسموها، فهي في شوق للمنعم لا للنعم، وللمعطي لا للعطاء، وللجار قبل الدار! هذا فضلاً عن تقريرها لقاعدة إيمانية: «عقيدة الولاء والبراء» عقيدة الحب والكره في الله! فقد تبرأت من الزوج، وتحدت الطغيان، صبرت على الابتلاء، لترقى إلى مرتبة سامية من العطاء؟ إلى جوار الله!

ومن الخواص الأخرى للتقديم والتأخير التأصيل لقضية عقدية، تتجلى في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) بتقديم مفردة «إياك» على الفعل «نعبد»

kitabweb-2013.forumaroc.net

وهذا التقديم قد احتوى كثافة دلالية لا يمكن تحقيقها فيما لو جاءت الآية على مقتضى التركيب المألوف بتقديم الفعل على المفعول «نعبدك ونستعينك» فقد أفاد هذا التقديم للضمير «إياك» معنى الحصر، أو القصر، كما يقول البلاغيون. بمعنى أن هذا التقديم قد قصر تحقيق العبودية والاستعانة على الله وحده دون سواه، ولو لم يتم هذا التقديم لاحتملت الآية العطف عليها، ومن ثمّ فإن العبادة والاستعانة قد تصرف لله سبحانه ولسواه!!

وعلى هذا فصيغة الحصر أو ما كان حقه التأخير قد جلّت مفهوم الألوهية، وأن الله وحده هو المعبود والمستعان.

٣ ـ **الوظيفة الدلالية للفاصلة القرآنية**: شكلت الفاصلة القرآنية سمة من سمات التلاؤم الصوتي، وروعه الأداء في النظم القرآني، وهذه الروعة الأدائية للفاصلة القرآنية نلحظها في قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ (١) وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ (٤) وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ (٥) أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ (٨)﴾ الضحى: ١ـ٨). في هذه الآيات حذفت كاف الخطاب في: «قلى، فآوى،

kitabweb-2013.forumaroc.net

فهدى، فأغنى» وهذا الحذف قد علله بعض المفسرين بأنه كثير للتخفيف رعاية للفواصل[1]، إلا أن بعض المهتمين بالدراسات القرآنية من القدماء والمحدثين قد نوهوا عن أن للفاصلة القرآنية وظيفة دلالية تؤازر مهمتها الإيقاعية، يقول الرماني: «وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة، لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها[2].

وتعلل عائشة عبد الرحمن بأن حذف كاف الخطاب في «قلى» وما يليها هو حذف يقتضيه مقام الخطاب، وهو تجنب مخاطبة الله سبحانه رسوله في موقف المؤانسة بجفاف القول: «ولو كان البيان القرآني يتعلق بهذا الملحظ اللفظي فحسب لما عدل عن رعاية الفواصل في الآيات بعدها: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ (الضحى: ٩-١١) وليس في السورة كلها «ثاء» فاصلة، بل ليس فيها حرف ثاء على الإطلاق ... ونرى - والله أعلم - أن حذف كاف من:

---

(١) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ٦/١.

(٢) علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله زغلول سلام، ط ٣، (القاهرة: دار المعارف، مجموعة «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني، والخطابي، والجرجاني، ١٩٥٦م)، ص٩٨.

kitabweb-2013.forumaroc.net

«وما قلى» مع دلالة السياق عليها، تقتضيه حساسية مرهفة بالغة الدقة واللطف، وهي تحاشي خطابه تعالى رسوله المصطفى في موقف الإيناس بصريح القول «وما قلاك» لما في القلى من حسّ الطرد، والإبعاد، وشدة البغض. أما التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذن بأنه لا يكون وداع إلا بين الأحباب، كما لا يكون توديع إلا مع رجاء العودة، وأمل اللقاء[1].

وفق هذا الدور الوظيفي ترددت جميع الفواصل في النظم القرآني، محققة دقة النظم، وعمق المعنى، وجمال الإيقاع.

(١) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني، ص ٢٥٠.

kitabweb-2013.forumaroc.net

٤ ـ الإعجاز في الاستخدام الحرفي

مثّل الاستخدام الحرفي المبحث الرابع من الإعجاز القرآني وأثره على مقاصد التنزيل الحكيم.

هذا الاستخدام قد تعدى حيزه الحرفي إلى التأثير على السياق النصي تأثيراً قد يغلب على المعنى العام بما يقتضيه مقام السياق.

وقد توزع هذا المبحث لخصائص ثلاث: لغوية، وصرفية، وبلاغية.

أ ـ خصائص لغوية:

لعل من أبرز السمات اللغوية للاستخدام الحرفي على الصعيد اللغوي ما نلحظه في:

١ ـ الخصوصية الدلالية للحرف القرآني: تميز الحرف القرآني بوظيفة معنوية مكثفة بحيث لا يقوم شيء آخر مكانه من الأشياء التي قد ترادفه، أو تقترب من معناه. ومن أمثلة

kitabweb-2013.forumaroc.net

هذه الدقة الادائية العالية أن الحرف يستقل بمفرده بطرح مبدأ عقدي؛ وهذا ما نلحظه في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (هود: ٦). هذه الآية أفادت تجسيد صفة من صفات الربوبية وهي «الرزق»، إذ ما من دابة علي الأرض من إنسان وحيوان إلا وقد تكفل الخالق سبحانه بتهيئة أسباب رزقها! فكما كان هو خالقها كان هو رازقها. وهذا المعنى الدلالي لمفهوم عطاء الربوبية جسده في الآية الكريمة حرف «على» تجسيداً دقيقاً، بحيث لا يؤدي هذا شيء آخر يوازيه في الوظيفة المعنوية؛ كأن يُستخدم الظرف «عند» بدلاً من «على»، علماً بأن السياق يستقيم معنوياً وعقدياً وأسلوبياً فيما لو جاءت الآية على هذا النحو: (وما من دابة في الأرض إلا عند الله رزقها) بيد أن التعمق لكلا السياقين يكشف عن بون شاسع بينهما، مما يتنافى مع مقتضى عطاء الربوبية الذي جسدته الآية؛ لأن استخدام «عند» لا يُلزم الأداء، فقد أقول «رزقك عندي ولكني سأحرمك منه» أما لو قلت: «رزقك عليّ» فأنا ملزم أن أمدك به، والله سبحانه لا يلزمه شيء، ولكنه ألزم نفسه بنفسه تفضلاً منه وكرماً.

kitabweb-2013.forumaroc.net

٢ ـ دقة الاستخدام العددي: شكل الاستخدام العددي في السياق القرآني نموذجاً من نماذج الإعجاز اللغوي الذي نقف إزاءه مبهورين، ليس فقط لأن مناط الإعجاز حرف واحد، إنما أيضاً لأن هذا الحرف قد استقل بنفسه ببيان هدف التنزيل الحكيم الذي قد يحتمل أكثر من تأويل: من ذلك ما جاء في آيتي سورة الزمر: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (الزمر: ٧١). وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ (الزمر: ٧٣).

هاتان الآيتان الكريمتان تصوران جانباً من يوم الحشر الأكبر بوعيده ووعده، حيث يساق المجرمون الأشرار كما يساق أشقياء الدنيا إلى المعتقلات مشيعين بالخزي والعار. ويساق المتقون الأبرار إلى دار النعيم المقيم، كما يساق العظماء الوافدون على الملوك مشيعين بالإجلال والإكبار.

kitabweb-2013.forumaroc.net

وعلى الرغم من أن كلتا الآيتين قد جاءتا على النسق التعبيري نفسه، إلا أن آية أهل النار قد خلت من حرف «الواو» في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ بينما وردت آية أهل الجنة متضمنة هذه «الواو»: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [1] فما الحكمة من مغزى وجود «الواو» في آية أهل الجنة؟!

ولعل أقرب الإجابات التي تتبادر إلى الذهن من ورود هذه «الواو» هي روعة وجلال الموقف، كما نوه عن ذلك بعض المفسرين: «والحكمة في زيادة الواو هنا «وفتحت» دون التي قبلها أن أبواب السجن مغلقة إلى أن يجيئها صاحب الجريمة فتفتح ثم تغلق عليه فناسب ذلك عدم الواو فيها بخلاف أبواب السرور والفرح فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها[2].

(١) ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية: «لم يذكر الجواب ههنا، وتقديره: إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسروا وفرحوا بقدر ما يكون لهم من نعيم. وإذا حذف الجواب ههنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل»، إسماعيل بن كثير، مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق، محمد علي الصابوني، (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٩٩٣م)، ٢٣٢/٣.

(٢) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، (دار الفكر، ١٩٧٧م) ٣٨١/٣.

kitabweb-2013.forumaroc.net

بيد أن الثعالبي قد ذكر سر استخدام هذه الواو بما يتلاءم مع الدقة الأدائية العالية للنظم القرآني وما يتفق ولغة العرب في استخدامها قائلاً: «.... ومنها واو الثمانية كقولك: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، وفي القرآن: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ (الكهف: ٢٢) وكما قال تعالى في ذكر جهنم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ بلا واو، لأن أبوابها سبعة، ولما ذكر الجنة قال ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا﴾ فألحق بها الواو لأن أبوابها ثمانية، و«واو» الثمانية مستعملة في كلام العرب»[1].

٣ـ **غلبة المعنى الحرفي على السياق النصي:** حقق استخدام حرف الجر في التعبير القرآني تأثيراً قوياً غلب على السياق النصي، بحيث يتغير مضمون السياق تبعاً لتغير الحرف حتى مع الفعل الواحد؛ ومن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ (٩٣)﴾ في هذا السياق القرآني يتراءى استخدام حرفي الجر «إلى» و«على» مع الفعل «راغ» فما العلة من اختلاف هذا الاستخدام؟!

---

(١) عبد الملك أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة وأسرار العربية، تحقيق سليمان البواب (دمشق: دار الحكمة، ١٩٨١م)، ص ٣٨٦.

kitabweb-2013.forumaroc.net

وتبدو علة هذا الاستخدام من خلال أن الفعل يُقيِّد معناه بالاستخدام الحرفي[1]، ومن ثمّ يلقي كل حرف بظلاله المعنوية على السياق؛ فعندما أريد في الآية الأولى الوصول للغاية جيء بحرف الجر «إلى»؛ لأن معناه الخاص انتهاء الغاية، والفعل «راغ» يتعدى إلى مفعوله في العادة بهذا الحرف. وعندما أريد معنى الاستعلاء الذي يوافق «راغ» الضارب المسيطر على ما يضرب جيء بحرف الجر «على» علماً بأن الفعل لم تتغير صورته، سواء في بنيته اللغوية، أو دلالته المعنوية.

وتطّرد هذه الخاصية للاستخدام الحرفي في آيات أخرى نجدها في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ (المطففين: ٣٠) ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ (الصافات: ١٣٧). مما يلفت الانتباه في هذا السياق القرآني اختلاف المؤدى الدلالي للفعل «مَرَّ» باختلاف حرف الجر المرافق؛ فنلحظ في الآية الأولى عندما أريد بالمعنى المرور الجانبي الذي قد يقتضي الالتصاق وصل الفعل إلى مفعوله بحرف الإلصاق وهو «الباء» علماً بأن الفعل «مَرَّ» يتعدى

(١) رشيد اللقاني، حرف الجر الزائدة (دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠م)، ص ١٦.

kitabweb-2013.forumaroc.net

إلى مفعوله عادة بهذا الحرف. ولكن عندما أريد بالمرور المرور الفوقي الذي لا يراد به الالتصاق جيء بحرف الجر «على» ليلائم معنى الفوقية والاستعلاء، مع العلم أن الفعل لم يطرأ عليه أي تغيير في الاستخدامين[1].

ومن الخواص الأخرى للاستخدام الدلالي لحرف الجر: تشكيله وحدة تعبيرية مستقلة، وهذا ما يفصح عنه حرفي «على» و«في» إذ يستخدم حرف «على» غالباً في المواضع التي تدل على السمو والرفعة والاستعلاء، لذلك نجده كثير الاستخدام مع «الهدى» ليناسب العلو مقام الهداية الذي يسمو بالنفس البشرية عن الدونية، ويرقى بها إلى مدارج الخير والفلاح. ونتأمل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ (البقرة: ٥) وقوله سبحانه: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ (الحج: ٦٧) ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ (سبأ: ٢٤) ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۝١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ۝١٢﴾ (العلق: ١١، ١٢).

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦.

kitabweb-2013.forumaroc.net

أما حرف «في» فهو يتضمن معنى الانخفاض والدونية؛ ولذلك نجده كثير الاستخدام في هذا المعنى: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ (مريم: ٣٨) ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾ (القمر: ٤٧) ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ (غافر: ٢٥)

وينوه العلامة ابن قيم الجوزية عن هذه القيمة التعبيرية، والتناسق الدقيق بين معنى الحرف وسياق استخدامه: «قيل في أداة «على» سر لطيف، وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى. وهو حق... فكان في الإتيان بأداة «على» ما يدل على علوه وثبوته واستقامته، وهو بخلاف الضلال والريب فإنه يُؤتى فيه بأداة «في» في الدلالة على انغماس صاحبه وانقماعه وتدسسه فيه»[1].

ومن المزايا الأخرى لحرف الجر في الاستخدام القرآني ما ينهض ببيان حيثيات قضية قد يبدو فيها التداخل المعنوي نظراً للتكرار اللفظي. كقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران: ٤٢).

(١) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ١/٦.

kitabweb-2013.forumaroc.net

تطرح هذه الآية الكريمة صورتين من الاصطفاء لمريم البتول: فما ماهية الاصطفاء الأول والثاني، وما وجه الاختلاف بينهما؟!

وتبدو الإجابة من ثنايا الآية نفسها، ومن خلال حرف الجر «على» الذي ينهض بمفرده ببيان هذه الاصطفائية، وذلك من خلال أن الاصطفاء الأول لم يرد فيه ذكر «على» وهذا دليل على أنه ليس اصطفاء طرف على آخر! بمعنى أنه اصطفاء عام، يشمل النساء والرجال في خصوصية هذا الاصطفاء الذي يعني: الاجتباء والاختيار، وهذا الاصطفاء قد يكون في الإيمان، والعمل الصالح، والخلق الطيب، والسلوك القويم.

أما الاصطفاء الثاني فقد جاء اصطفاءً خاصاً لورود حرف «على» الذي نوه عن اصطفائها على نساء العالمين، وبذلك أخرج عنصر الرجال من هذا الاصطفاء، ثم قصره من عنصر النساء على مريم العذراء لكونها الأنثى الوحيدة بالعالم التي كان إنجابها خرقاً لسنن الإنجاب! فقد خضع هذا الإنجاب لإرادة مكوِّن لا لعنصرية التكوين!!

kitabweb-2013.forumaroc.net

ب. خصائص صرفية:

وللاستخدام الحرفي في النص القرآني خواص صرفية، نهض بتكثيف أثر النظم القرآني في استجلاء آفاق الكتاب الكريم، من ذلك ما نجده على صعيد:

١ـ التصعيد المعنوي للاستخدام الحرفي:

رسم الاستخدام الحرفي في النص القرآني صورة ذهنية مكثفة ألقى بظلاله على الفكر والشعور، وشكل أثراً قوياً في تحقيق مقاصد القرآن الكريم كطاقة فاعلة في اتباع الأوامر، واجتناب النواهي! ولنرهف السمع لهذا الاستخدام: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم: ٧).

في هذا الخطاب القرآني يستوقفنا فعل «تأذّن» بدخول التاء على الفعل «أذن» إذ إن دخولها قد صعّد مؤدى الفعل ليصبح فحواه: «أخبر ربكم خبراً مؤكداً أو أقسم»[١] فدخول التاء نهض بوظيفة دلالية مكثفة ليس فقط لكونها أكدت مضمون الفعل «أذن» إنما أيضاً لكونها سارت به

---

(١) محمد حسن الحمصي، مفردات القرآن: تفسير وبيان، (دمشق، دار الرشيد، د.ت.)، ص ٢٥٦.

kitabweb-2013.forumaroc.net

خطـوات أخـرى لترسمـه في الـذهن والشـعور بصـورة يقينيـة، لنهوضـها بمعنـى القسـم؛ لكـون القسـم عنـد البشـر يقتضـي الوجـوب والإنفـاذ عنـد الاسـتحقاق، فكيـف إذا كـان هـذا القسـم قـد صـدر عـن خـالق البشـر، ومسـبب الأسـباب؟! وهنـا يبهرنـا دور التـاء الـوظيفي في تأكيـد حيثيـة القسـم، ثـم رسـم مـا يترتـب عليـه مـن خـلال تلـك المقابلـة الصـارخة الـتي رسمتهـا الآيـة بـين مـا يـؤول إليـه حـال الشـاكرين، وشـدة عـذاب الجاحـدين، بحيـث يُصـعِّد القسـم صـورة هـذا النعـيم، وذاك العـذاب بصـورٍ شتى تذهب النفس فيها كل مذهب.

أيضـاً مـن الـدور الـوظيفي للاسـتخدام الحـرفي مـا يؤديـه مـن خصوصـية دلاليـة تجلّـي مقاصـد القـرآن في حمايـة المجتمـع مـن الشرور والآثام.

٢ـ التضعيف الحرفي:

من المعلوم أن التضعيف الحرفي له دوره الرئيس في تشكيل بنية الكلمة، فضلاً عن زيادة معنى الفعل. غير أن هـذا الـدور الـوظيفي للتضعيف الحرفي على صعيد التعبير القرآني يـذهب بعيـداً في مـؤداه الـدلالي؛ وذلـك مـن ملاحظـة أن الحـرف المشـدد يـتردد أحيانـاً في

kitabweb-2013.forumaroc.net

الألفاظ التي تحمل صوراً شتى من ألوان العنف والقوة، والإجرام بما تقتضيه مقاصد التنزيل، ومن ثمّ نجد أن هذا التضعيف يتردد في سياق: الذبح، القتل، الصلب، الحرق، إلخ ... من ذلك ما جاء في قوله تعالى على لسان فرعون بعد إيمان السحرة: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٤) فهذا التضعيف قد عمق مؤدى الفعل في الذهن والشعور ليصبح الفعل القبيح أكثر قبحاً، وأشد إيلاماً، بيد أن هذه الصورة القبيحة والمؤلمة تتصعد إلى ذروتها عندما يكون هذا التقتيل والتذبيح للأبناء ثمرات الأكباد ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ (الأعراف: ١٤١) ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ (البقرة: ٤٩) ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٧).

ولما كانت ماهية التضعيف الحرفي وفق السياق زيادة فاعلية الحدث، وتصعيد صورته في النفس قبحاً وإيلاماً فقد كان جزاء من يسعى في الأرض فساداً، ويحارب شريعة الله ورسوله عناداً وتكبراً، ليكون هذا العقاب جزاءً للمذنبين، وعظةً للمعتبرين: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا

kitabweb-2013.forumaroc.net

﴿أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ (المائدة: ٣٣)، كذلك كان جزاء المنافقين والمرجفين الذين يشيّعون الأخبار الكاذبة في المدينة: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦١).

والى جانب ذلك نجد هذا التضعيف الحرفي يتردد في سياق آخر من مواضع تصعيد الأفعال القبيحة المستنكرة، وهي تكذيب دعوة الرسل: فقد أنكر سبحانه على بني إسرائيل فعلهم القبيح: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة: ٨٧).

ثم تتوالى صور التضعيف الحرفي للأحداث المفزعة، بيد أن هذه الصورة أشدها فزعاً: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ (التكوير: ١٢). فنارُ جهنم يزداد حرها وهي تستقبل روادها، حتى يصل إلى درجة اللهيب والهيجان، جاء في مختار الصحاح: سعّر النار والحرب: «هيجها وألهبها» وليس هذا فحسب، بل تزداد الصورة هولاً وفزعاً عندما ترد هذه الصورة بصيغة الفعل المبني للمجهول «سُعّرتْ» حتى يأخذ الفزع بالنفس كل مأخذ، لأن صورة الفعل تُقدر بقدر فعل الفاعل وجبروته!

kitabweb-2013.forumaroc.net

ثم تطالعنا صورة أخرى من صور التضعيف الحرفي تقابل الصورة الأولى، لتفتح أمامنا آفاقاً مشرقة من خلال وظيفتها التكثيرية، ولنرهف السمع لهذا الخطاب الإلهي: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ (طه: ٨٢) ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ (ص: ٦٦) ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ (غافر: ٤٢).

في هذه الآيات الكريمة ترتقي مهمة التضعيف إلى أجواء علوية، لأنها صادرة عن رب القدرة والمغفرة، لتشيع الأمل والرجاء في النفوس، ليس فقط من خلال شيوع المغفرة بل بكثرتها ودوامها، ومن ثمّ تؤدي هذه الخصوصية حماية المجتمعات من الشرور والآثام؛ لأن الشرير إذا علم أن الله لن يغفر له تمادى في شره، ووسع دائرة شروره وجرائمه في آفاق مجتمعه.

جـ- خصائص بلاغية:

ومع مواكبة أثر النظم القرآني على الصعيد الحرفي نتلمس أثر هذا النظم أيضاً من خلال السمات البلاغية التي حققت قدرة أدائية عالية، من ذلك ما نجده في:

kitabweb-2013.forumaroc.net

١ ـ التوظيف المجازي لحرف النداء: حقق حرف النداء في السياق القرآني وظيفة معرفية عمّق في النفس الإنسانية قضية عقدية تجلت في خشية الله، وسرعة الأوبة إليه، من ذلك ما نلحظه في حرف النداء «يا» الذي من خواصه أن يُنادى به القريب والبعيد معاً[1]. إلى جانب أن المنادى به غالباً ما يكون شخصاً مقرباً، أو مكاناً محبباً، بيد أن الشيء المستغرب أن ينادي الإنسان به: الويل والحسرة: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٤) ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ (الصافات: ٢٠) ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ (الزمر: ٥٦) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ (الأنعام: ٣١).

ولدى إنعام النظر في هذه الآيات يتبادر سؤال: لماذا يستدعي الإنسان الويل أو الحسرة في هذا الموقف العصيب؟ وهل هي قادرة على العون والإنقاذ؟! والإجابة يجسدها هول الموقف نفسه على سبيل الحقيقة لا المجاز! لأن المنادي لا يجد بجواره سواها بعد أن تخلى عنه الأهل والأعوان!! فيلجأ إلى تشخيصها، وبثها همومه وأحزانه علها تخفف عنه لوعته ؟!

(١) جمال الدين بن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، تحقيق مازن المبارك، محمد علي حمد الله، ط٢، (دار الفكر، د.ت.)، ١/١٣/٤١٣.

kitabweb-2013.forumaroc.net

وهنا تتجلى روعة الأداء القرآني في تحقيق أهداف التنزيل الحكيم من خلال تمثل النفوس مرارة هذا الموقف العصيب، فترتدع وتؤوب، وتعقد صلحاً مع الله قبل فوات الأوان!

٢- البعد الدلالي للتقديم الحرفي: أفصح هذا الاستخدام عن سبر أغوار النفس الإنسانية في خيرها وشرها، وهذا ما تراءى في قوله سبحانه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

هذه الآية تبدى منها ملمحان دلاليان، الأول: بتقديم الجار والمجرور على الفعل! وهذا التقديم حمل خصوصية معنوية لا تتحقق فيما لو جاء التعبير على النسق اللغوي المألوف، بتقديم الفعل على الجار والمجرور (ما كسبت لها، وما اكتسبت عليها) ومن ثمّ كان تقديم ما حقه التأخير يحمل صفة القصر، أو الحصر بالمقصور عليه، يختص به ولا يتعداه لسواه، ومن ثمّ حقق هذا التقديم مؤداه الدلالي بتعزيز القاعدة الإيمانية ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤).

أما الملمح الآخر فنجده في دقة استخدام «لها» مع الكسب، و«عليها» مع الاكتساب؛ لأن الكسب - عادة -

kitabweb-2013.forumaroc.net

يستخدم مع الخير، وعليه ستجني النفس وحدها الثمار الخيّرة التي غرستها يداها، أما الاكتساب فيستخدم مع الشر، بمعنى أن عليها وحدها يقع وزر ما اقترفته من آثام. وهذا التقابل المعنوي بين الكسب والاكتساب له مغزاه الدلالي، من خلال صيغة الاشتقاق اللغوي، على الرغم من أن المادة الاشتقاقية لكل منهما واحدة، غير أن فعل «كسب» لا يتطلب أداؤه الجهد والمكابدة. وعندما يتقيد استعمال هذا الفعل في مجال الخير؛ فمعنى ذلك أن الأفعال الخيّرة وليدة الفطرة البشرية السوية التي فطرت على الخيرية، ومن ثم جاء الدين الإسلامي يعزز هذا الجانب ويرعاه، حاثاً على الخير بكل سبله، ناهياً عن الشر بكل صوره ومنعطفاته، ومن هنا كان الكسب سبيلاً إلى الخير.

أما فعل «اكتسب»، فأداؤه يتطلب الجهد والمكابدة، وهذا المؤدى الدلالي يجسده زيادة الألف والتاء في الفعل طبقاً لما يقوله النحويون: كل زيادة في المبنى دلالة على زيادة في المعنى؛ وهذه الزيادة في المعنى حملت في ثناياها طاقة جهد عضلي ونفسي لافتعال شيء لا يتأتى تلقائياً وفق الفطرة الطبيعية، ومن ثمّ كان استخدام «الاكتساب» منطلقاً

kitabweb-2013.forumaroc.net

للأفعال السيئة التي تقتضي مغالبة الفطرة لأداء هذه الأفعال! كمن يود أن يفعل شيئاً مريباً، فهو يكابد صوراً شتى من المعاناة الحسية والنفسية.

وهكذا باطلاعنا على نماذج الاستخدام الحرفي نكون قد تمثلنا أثر النظم القرآني بعمومه وخصوصه على بيان مقاصد التشريع في كتاب العربية الأكبر، ومعجزتها البيانية الخالدة.

kitabweb-2013.forumaroc.net

الخاتمة

لقد كان من البدهي أن تتجه العقول إلى المعجزة القولية الكبرى التي أفحمت الفصحاء والبلغاء عن محاكاتها والإتيان بآية واحدة منها، مما دعا أن تسود المجتمع الإسلامي حركة من التفكير تدعو للنظر في أسلوب القرآن الكريم، ومعانيه، والوقوف على مواطن الإعجاز فيه.

وهذه الدراسة تنضوي في ثنايا هذه المنظومة المعرفية التي عرضت لهذا النظم، وكانت محصلتها أن النظم القرآني هو القول المعجز الذي اتضحت آثاره في القرآن كله، محققاً الحكم التشريعي، والتآلف اللفظي، والتناسق المعنوي، والتشكيل الصوتي الإيقاعي، مما جعل هذا القرآن ذا نسيج خاص، كل كلمة لها وظيفتها الدلالية والإيقاعية، «بحيث لو استبدلنا بها كلمة أخرى فسد المعنى، وفقدت العبارة سر إيحائها، وذلك ما يحسم الخلاف في قضية اللفظ والمعنى»[1].

وعلى هذا فقد حقق النظم القرآني صورة تعبيرية فريدة لم يُعهد لها نظير في العربية؛ وقد وفق الرافعي في التنويه عن سر

(١) عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني للقرآن الكريم، ط ٣، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٨م)، ص ٨.

kitabweb-2013.forumaroc.net

التعبير القرآني وجلال إعجازه: «نزل هذا القرآن بهذه اللغة على نمط يُعجز قليله وكثيره ... وهو في كل جزء من أجزائه، وفي أجزائه جملة لا يُعارض بشيء إلا إذا خلقت سماء غير السماء، وبُدّلت الأرض غير الأرض، وإنما كان ذلك لأنه صفّى اللغة من أكدارها، وأجراها في ظاهرها على بواطن أسرارها ... ولهذا بُهتوا حتى لم يتبينوا أكانوا يسمعون بها صوت الحاضر، أم صوت المستقبل، أم صوت الخلود، لأنها هي لغتهم التي يعرفونها، ولكن في جزالة لم يمضغ لها شيح ولا قيصوم، ورقة غير ما انتهى إليهم من أمر الحاضرة»[1].

وإلى جانب اطلاعنا على هذا النظم القرآني المعجز فإن الدراسة قد طرحت لوناً آخر من وجوه الإعجاز تجلى في أن كل جزئية من جزئيات التعبير القرآني حتى على صعيد الاستخدام الحرفي كانت لها خصوصية دلالية جلّت آفاق الكتاب الكريم وعمقت مقاصده؛ إذ أفصحت في مجملها عن مفاهيم عقدية رسخت العقيدة، وصححت مسارها، وقضايا اجتماعية نظمت حياة الفرد والمجتمع، وظواهر لغوية أبانت عن بلاغة التعبير في لغة التنزيل الحكيم.

---

(١) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط ٨، (بيروت: دار الفكر العربي، د.ت.) ص٧٤.

kitabweb-2013.forumaroc.net

وهـذا الجانـب مـن الإعجـاز التشـريعي - إن صـح هـذا التعـبير - قـد تجلـى مـن خـلال النمـاذج العديـدة الـتي طرحتهـا الدراسـة، وتـآلف فيهـا الإعجـاز اللغـوي مـع التشـريعي في وحـدة واحـدة مـن التعـبير لبيـان أثـر القـانون الإلهـي في حياتنـا المعاصـرة، بوضـع ضـوابطها وتنظيمهـا لتـتم مهمـة الاستخلاف، وإعمار الحياة بمنهج الله.

ومـن منطلـق هـذه الثوابـت سـيبقى القـرآن المعجـزة اللغويـة الخالـدة، الماثلـة في نظمـه وتشـريعه، وقـد هيـأ الله لهـذا الـنظم الحفـظ، ليبقـى الإعجـاز محفوفـاً بـالحفظ، ليكـون هدايـة السـماء لـلأرض، يـنير للبشـرية مسـالك الحيـاة الفاضـلة، لتنـتظم حركـة الحيـاة بقـانون السماء.

رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا

ربنا وتقبل دعاءنا ، والحمد لله رب العالمين

د . وجاء محمد عودة

أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب جامعة الملك سعود

kitabweb-2013.forumaroc.net

kitabweb-2013.forumaroc.net

المعاجم ودوائر المعارف

١ـ القرآن الكريم.

٢ـ «مغني اللبيب»، الأنصاري، جمال الدين بن هشام (ت ٧٦١هـ)، تحقيق مازن المبارك، محمد علي حمد الله، ط ٢، (دار الفكر، د.ت.).

٣ـ «صحيح البخاري»، البخاري، الإمام محمد بن إسماعيل (١٩٤ ـ ٢٥٦هـ).

٤ـ «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، البيضاوي، عبد الله بن عمر (ت ٦٧٥هـ)، (بيروت: دار الجيل، د.ت.).

٥ ـ «فقه اللغة وأسرار العربية»، الثعالبي، عبد الملك أبو منصور (٣٥٠ ـ ٤٢٩هـ)، تحقيق سليمان البواب، (دمشق: دار الحكمة، ١٩٨٤م).

٦ـ «دلائل الإعجاز»، الجرجاني، عبد القاهر (ت ٤٧١هـ)، تحقيق محمود شاكر (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٤م).

kitabweb-2013.forumaroc.net

٧- «زاد المسير في علم التفسير»، ابن الجوزي، عبد الرحمن (٥٠٨ - ٥٩٦هـ)، (الكتب الإسلامي).

٨- «مدارج السالكين»، الجوزية، ابن قيم (٦٩١ - ٧٥١هـ)، تحقيق محمد حامد فقي (مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٩م).

٩- «مفردات القرآن: تفسير وبيان» الحمصي، محمد حسن، (دمشق: دار الرشيد، د. ت.).

١٠ - «بيان إعجاز القرآن» الخطابي، حمد أبو سليمان (٣١٩- ٣٨٨هـ)، تحقيق، محمد خلف الله، وزغلول سلام، ط ٣، «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن»، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٦م).

١١- «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»، الرافعي، مصطفى صادق، ط٨، (بيروت: دار الفكر العربي، د. ت.).

١٢- «النكت في إعجاز القرآن»، الرماني، علي بن عيسى (٢٩٦-٣٨٦هـ)، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، ط ٣ «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن»، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٦م).

١٣- «الإتقان في علوم القرآن»، السيوطي، جلال الدين (٨٤٩- ٩١١هـ)، ط ٣، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥١م).

kitabweb-2013.forumaroc.net

١٤ـ «صفوة التفاسير»، الصابوني، محمد علي، (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٩٨١م).

١٥ ـ «حاشية الصاوي على تفسير الجلالين»، الصاوي، أحمد بن محمد (١١٧٥-١٢٤١هـ)، (دار الفكر، ١٩٧٧م).

١٦ ـ «تاريخ الأدب العربي ـ العصر الإسلامي»، ضيف، شوقي، ط ٦ (القاهره: دار المعارف، ١٩٦٣).

١٧ـ «جامع البيان في تفسير القرآن»، الطبري، محمد بن جرير (٢٢٤ــ ٣١٠)، (بيروت: دار الجيل، القاهرة، دار الحديث، ١٩٨٧م).

١٨ ـ «الإعجاز البياني للقرآن»، عبد الرحمن، عائشة، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١).

١٩ ـ «التفسير البياني للقرآن الكريم»، ط٣، (القاهرة: دار المعارف ١٩٦٨م).

٢٠ ـ «قاموس القرآن الكريم (لغة القرآن»، عمر، أحمد مختار، (الكويت: مؤسسه التقدم العلمي، ١٩٩٣م).

٢١ ـ «مقاييس اللغة»، ابن فارس، أحمد، تحقيق: عبد السلام هارون (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٦٦هـ).

kitabweb-2013.forumaroc.net

٢٢- «محاسن التأويل»، القاسمي، محمد جمال الدين (١٢٨٣ – ١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط٢، (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨م).

٢٣- «التصوير الفني في القرآن»، قطب، سيد، (بيروت: القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٢م).

٢٤- «مختصر تفسير ابن كثير»، ابن كثير، إسماعيل بن عمر (٧٠١- ٧٧٤هـ)، تحقيق محمد علي الصابوني (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٩٩٣م).

٢٥- «التسهيل لعلوم التنزيل»، الكلبي، محمد بن أحمد بن جزي (٦٩٣- ٧٤١هـ)، تحقيق محمد عبد المنعم يونس، إبراهيم عوض (القاهرة: دار الكتب الحديثة، د.ت.).

٢٦ - «حروف الجر الزائدة»، اللقاني، رشيدة عبد الحميد، (دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠م).

٢٧ - «دراسة أدبية لنصوص من القرآن»، المبارك، محمد، (بيروت: دار الفكر ١٩٧٣م).

٢٨ - «الظاهر القرآنية»، ابن نبي، مالك، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط ٤، (دمشق: دار الفكر ١٩٨٧م).

kitabweb-2013.forumaroc.net

٢٩- «البحر المحيط»، النحوي، محمد بن يوسف أبو حيان (٦٤٥-٧٤٥هـ)، (الرياض: مكتبة النصر الحديثة، د.ت.).

٣٠- لسان العرب، محمد جمال الدين ابن منظور (٦٣٠-٧١١هـ)، (دمشق: مكتبة النوري، د.ت.).

٣١- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي (ت ٦٦٦هـ دمشق: دار الحكمة، ١٩٨٣م).

٣٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي (كتاب الشعب، دار ومطابع الشعب، د.ت).

٣٣- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، إشراف عبد السلام هارون، (مطبعة مصر، ١٩٦١م).

٣٤- دائرة المعارف الإسلامية، لجنة مؤلفين. (القاهرة: شركة سفير، د.ت.).

kitabweb-2013.forumaroc.net